شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي -رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٢١)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثم قال: [وقال أيضاً: ((وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ))[البقرة:٣١-٣٣]، فأخبر الله تبارك وتعالى أنَّه هو الذي علَّم آدم والملائكة العلم، من غير أن يعلموا شيئاً منه، وأقرَّت الملائكة بذلك، وردَّت العلم كله إلى من بدأ منه، فقالوا: ((لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ))[البقرة:٣٢]، فهل علَّمهم إلا ما قد علمه قبل ذلك؟

وقال فيما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم: ((وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا))[النساء:١٧]، ((عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ))[الحشر:٢٢]، ((أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا))[الطلاق:١٢]، ((يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ))[البقرة:٧٧]، ((يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ))[الأنعام:٣]، ((يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى))[طه:٧]، قال: ما لم تحدِّث به نفسك].

أراد بذلك تفسير (وأخفى)، قال: ((يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى))[طه:٧]، كأنَّه فسَّر ما هو أخفى من السر: ما لم تحدِّث به نفسك.

[((يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ))[غافر:١٩]، فأخبر الله سبحانه أنَّه كان العالم قبل كل أحد، ومنه بدأ العلم، قال: ((وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ))[الرعد:٤٣]، وقال: ((فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ

مِنَ الْعِلْمِ))[آل عمران:٦١]، جاءه العلم من الله، وهو القرآن، ثم أخبر بعلمه السابق في عباده قبل أن يعملوا، فقال: ((أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً))[الجاثية:٢٣] الآية، وقال: ((عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ))[سبأ:٣]، وقال: ((تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ))[المائدة:١١٦]، ((عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ))[البقرة:٢٣٥]، ((عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ))[المزمل:٢٠] الآية، وما أشبه هذا من كتاب الله كثير].

صدق رحمه الله، يعني: الواقع أنَّ آيات العلم في القرآن كثيرة جداً جداً، ولهذا كانت صفة العلم من أبين الصفات، وأوقرها في قلوب المؤمنين، من أنَّ الله علمه محيط بكلِّ شيء، فتجد في آي الكتاب ما يدلُّ على علم الله السابق بكلِّ شيء على سبيل الإطلاق والعموم، وبعلوم خاصة مما يتعلق بأفعال العباد، جميع سور العلم الممكنة تجدها مذكورة في القرآن، بل وغير الحاصلة، كقول الله سبحانه وتعالى: ((وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ))[الأنعام:٢٨]، هذا علم بما لم يكن كيف لو كان يكون، فقد علم ما كان في الماضي، وما يكون في الحاضر، وما سوف يكون في المستقبل، وما لم يكن كيف لو كان يكون، ((وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ))[الأنعام:٢٨]، فإحاطة علم الله عز وجل بالأشياء إحاطة تامة، تأمل قول الله تعالى: ((وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ))[الأنعام:٥٩]، جميع الأمور المتقابلة مذكورة، ((أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا))[الطلاق:١٢]، ((وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ))[فاطر:١١]، ولاحظ ((مِنْ أُنْثَى)) للاستغراق، وليس إناث بني آدم، كلُّ أنثى، ((إِلَّا بِعِلْمِهِ))، وكذلك قول الله عز وجل: ((إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ))[لقمان:٣٤]، فآيات العلم آيات مطلقة ليس فيها استثناء، فعجباً لقوم يدَّعون أنَّ الله تعالى لا يعلم بالأشياء، ولا يعلم بطاعات العباد ومعاصيهم إلا بعد صدورها منهم.

[ولو لم يكن منها في كتاب الله إلا حرف واحد لاكتفي به حجةً بالغةً، فكيف والكتاب كله ينطق بنصه، يستغنى فيه بالتنزيل عن التفسير، وتعرفه العامة والخاصة.

فلم تزل عليه الأمة إلى أن نبغت هذه النابغة بين أظهر المسلمين، فأعظموا في الله القول، وسبوه بأقبح السباب، وجهَّلوه ونفوا عنه صفاته التي بها يعرف صفةً صفةً، حتى نفوا عنه العلم الأول السابق، والكلام، والسمع والبصر، والأمر كله].

قوله: (إلى أن نبغت هذه النابغة)، هذا نبز لهم، (نبغوا) يعني: كأنَّهم خرجوا عن جماعة المسلمين وأهل السنة، فخرجوا كما ينبغ الشيء، كأن ينبغ الشيء مثلاً يخرج من السقاء والوعاء وغير ذلك، يقال: نبغ، فهذه نابغة شاذة، فهذا نبز لهم وسُبَّة، فادعوا هذه الدعوى التي تتضمن تنقص الرب سبحانه وتعالى، ووصفه بنقيض العلم وهو الجهل. تعالى الله عما يقولون.

[ثم جعلوه كلا شيء، فقالوا في الجملة: ما نعرف إلهاً غير هذا الذي في كلِّ مكان، فإذا باد شيء صار مكانه. فنظرنا في صفة معبودهم هذا فلم نجد بهذه الصفة شيئاً غير هذا الهواء القائم على كلِّ شيء، الداخل في كلِّ مكان، فمن قصد بعبادته إلى إله بهذه الصفة فإنَّما يعبد غير الله، وليس معبوده ذاك بإله، كفرانه، لا غفرانه].

مراده بذلك أنَّ الإله الذي وصفوه بأنَّه في كلِّ مكان، وأنَّه ذات الأشياء، وأنَّه منبث في الكون، هذا لو أردنا أن نكيِّفه لم نجد إلا أن يكون هذا الهواء الذي يتخلل الأشياء، وينتشر في كلِّ مكان، فهذا إلههم الذي يعبدونه، هذا الذي ينطبق عليه وصفهم، أما الإله الذي نعبده ونجله سبحانه وبحمده فهو المستوي على عرشه، البائن من خلقه، فوق سماواته، الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا، فشتان بين إلهنا الذي نعبده لا إله غيره ولا ربَّ سواه، وبين ما اصطنعوه لأنفسهم ورسمته عقولهم.

[فاحذروا هؤلاء القوم على أنفسكم وأهليكم وأولادكم أن يفتنوكم، أو يكفروا صدوركم بالمغاليط والأضاليل التي تشتبه على جهالكم، فإنَّ الله تعالى قال في كتابه: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ))[التحريم:٦]].

هذه لفتة حسنة من الشيخ رحمه الله، وهي التنبيه على المسئولية المتعلقة بالأهل والأولاد، فإنَّ هذا أمر من أعظم الواجبات، هو أعظم من النفقات التي ألزم الشارع بها المنفق على من تجب عليه نفقته من الزوجة والولد والبهائم وغير ذلك، أعظم من ذلك أن يصون أهله ومن تحت ولايته من أن يتسرب إليهم شيء من هذه الشبهات والأغلوطات، فمن بسط الله تعالى يده على أحد من ذوي السلطان، أو من كانت له قوامة على زوجة وولد، فإنَّ من أعظم المهمات أن يحصِّنهم، ويمنع عنهم الأضاليل والشبهات، فهذا أمر أعظم من المطعم والمشرب والملبس والمسكن، حماية العقول، ولهذا يجب على من جعل الله له ولاية سلطانية على الناس أن يحفظهم من الشبهات، وأن لا يستسلم لهذه الدعاوى المعاصرة باسم حرية الفكر، حرية التعبير، فيُترك المجال لكل ناعق أن يبثَّ سمومه، وأن يتقيأ على الناس من غريث جوفه الفاسد، ومن زبالات أفكاره ما يحصل به التضليل، بل يجب أن تُعقل ألسنتهم، ويُكفَّ شرهم، لو نزل في البلد مصاب بداء معدٍ لضُرب عليه حجر صحي، ومُنع من مخالطة الناس، فكيف بهذا الذي يحمل الضلالات والكفريات والشبهات تُفسح له المحاضرات، ويعتلي المنابر، ويتخذ وسائل الإعلام ليبث هذا الشر، من أوجب الواجبات على أصحاب الولايات السلطانية قمع هؤلاء المفسدين ومنعهم، مهما قيل من حرية الرأي وحرية التعبير وغير ذلك، هذه كلها اصطلاحات أنتجتها العلمانية، وبيئات غير إسلامية، فالواجب على أهل الإسلام أن لا يُستزلوا إلى هذه الأمور، وأن يدركوا أهمية حفظ مجتمعاتهم بعامة، وأهليهم بخاصة من أن يتسلل إليهم شيء من هذه الكفريات.

ثم قال: [فإن جحد منهم جاحد وانتفى من بعض ما حكينا عنهم، فلا تصدقوهم، فإنَّه دينهم الذي يعتقدونه في أنفسهم، لا يجحد ذلك منهم إلا متعوذ مستتر، أو جاهل بمذاهبهم، لا يتوجه بشيء منها].

أيضاً هذه إشارة إلى بعض طريقة القوم، وأنَّهم يستعملون التقية عند المجادلة وعند مضائق النقاش، وعند الخوف على أنفسهم، فإنَّهم ربهم تنصَّلوا عن ذلك، أو لم يلتزموا بهذه اللوازم، وهم في الحقيقة يعتقدونها، لكن يتنصلون منها تعوّذاً واستتاراً من أن يجبههم الناس بهذا الأمر، ويلزموهم به، فينكشف خزيهم، فعلينا أن ننتبه بأنَّ في أصحاب الشبهات والضلالات من قد ينفي وينكر بعض ما يقوله في السر.

[فقد اعترف لنا بذلك بعض كبرائهم، أو بما يشبه معناه، وأسندوا بعض ذلك إلى بعض المضلين من أشياخهم، فإلى الله أشكو رأياً هذا تأويله، وقوماً هذا إبطالهم لعلم ربنا.

والله لقد علمت الملائكة بما علَّمهم الله ما هو كائن من بني آدم من الفساد وسفك الدماء قبل أن يُخلقوا، فكيف خالقهم الذي علمهم ذلك؟ فقالوا: ((أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ))[البقرة:٣٠]، فقال: ((إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ))[البقرة:٣٠]].

وهذا تأكيد لما تقدم ذكره من أنَّ الملائكة إنَّما علمت ذلك بما أعلمها الله تعالى به، فإذا كان الله تعالى قد أعلمهم بذلك دلَّ هذا على أنَّه هو الذي قدَّر المقادير، وأنَّ الأمور تجري وفق معلومة، ولهذا كان الإمام الشافعي رحمه الله يقول عن القدرية: جادلوهم بالعلم، أو قال: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن أنكروه كفروا. نعم، قال: ناظروهم بالعلم، يعني: قولوا لهم: هل الله تعالى عالم أم لا؟ فإن قالوا: نعم، قلنا: الحمد لله، وقعت أفعال العباد وفق معلومة، فهذا دليل على تقديره لها، وإن قالوا: لا لم يعلم. كفروا، لأنَّ من أنكر العلم لله عز وجل فقد وصفه بضده وهو الجهل، وهذا عين الكفر.

قال المصنف رحمه الله تعالى: [ووصف الله هذه الأمة في التوراة والإنجيل قبل أن يُخلقوا بصفاتهم، فكيف وصفهم من غير علم له بهم؟ فقال: ((مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ))[الفتح:٢٩]، قال: ((فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ))[الأعراف:١٥٦-١٥٧]، فهل كان هذا الوصف من الله تعالى والإخبار عنهم إلا لعلمه السابق فيهم، فما قدروا أن يتعدوا هذه الصفات، ولا يقصروا عن شيء مما وصفهم الله به قبل أن يكونوا، وقال: ((وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ))[الأنبياء:١٠٥]، فكتب ذلك بعلم قبل أن يرثوها، وقال: ((وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا

كَبِيرًا))[الإسراء:٤]، قضى عليهم في الكتاب الإفساد في الأرض قبل أن يفسدوا. وقوله: ((وَقَضَيْنَا))، قال مجاهد: كتبنا، كذلك حدَّثنا نعيم بن حماد، عن ابن المبارك، عن ابن جريج، عن مجاهد.

وقال: ((إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ))[الأنبياء:١٠١]، سبقت لهم الحسنى من الله قبل أن يُخلقوا لعلم الله فيهم، فما استطاعوا أن يتعدوا شيئاً علمه الله فيهم.

وقال: ((وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ))[الصافات:١٧١-١٧٣]. وأخبر عن أعمال قوم قبل أن يعملوها، قال: ((وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ))[هود:٤٨]، فأخبر الله تعالى بتمتيعهم ومس العذاب إياهم قبل أن يُخلقوا. قال: ((وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ))[الجمعة:٣]، روي في بعض التفسير أنَّهم الأعاجم، أخبر الله بدخولهم في الإسلام قبل أن يدخلوا.

وقال لأهل بدر حين أخذوا الفداء من المشركين: ((لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ))[الأنفال:٦٨]، يقول: لولا ما سبق لأهل بدر من السعادة لمسهم العذاب في أخذهم الفداء، فلم يقدر أهل بدر أن لا يأخذوه، ولو حرصوا على تركه. وقال: ((إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ))[يونس:٩٦-٩٧]، وقال: ((وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ))[الأنعام:٢٨]، وقال: ((إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ))[الدخان:١٥-١٦]، وقال: ((وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ))[الحشر:١٠]، فسبقت لهم منه الرحمة قبل أن يُخلقوا، والدعاء لمن سبقهم قبل أن يدعوا.

وقال: ((فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُغْرَقُونَ))[الدخان:٢٣-٢٤]، فأخبر الله باتباعهم وإغراقهم قبل أن يكون.

وقال: ((وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ))[هود:١١٨-١١٩]، فأخبر باختلافهم قبل أن يختلفوا.

وقال: ((عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا))[الجن:٢٦-٢٨].

وقال: ((إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ))[الأنفال:٢٢-٢٣]، ولكن علم منهم غير ذلك، فصاروا إلى ما علم منهم. وأخبر بعلمه في قوم فقال: ((سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ))[يس:١٠]، وأخبر عن قوم آخرين فقال: ((وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ))[المؤمنون:٧٥]].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذه نحو ثلاثين دليلاً انتزعها المصنف رحمه الله من كتاب الله عز وجل، كلها يدلُّ على سبق علم الله تعالى بالكائنات قبل حصولها، وعلى تقدم كتابته بما يقع منهم، وفي هذا ردٌّ بليغ لا يبقي مجالاً للشك في أنَّ الله سبحانه وتعالى أحاط علمه بكلِّ شيء، ما يتعلق بأفعاله، وما يتعلق بأفعال خلقه، والمنكرون لهذه المسألة في هذا المقام الجهمية والقدرية، فالجهمية أنكروا صفة العلم لله عز وجل من باب إنكارهم للصفات الثبوتية لله عز وجل، والقدرية أنكروها من جهة إنكارهم للقدر، كيف ذلك؟ أما الجهمية فإنَّ مذهبهم في صفات الله تعالى أنَّه ليس لله تعالى صفة ثبوتية في نفس الأمر، تعتقد الجهمية وهم معطلة محضة أنَّ الله تعالى ليس له صفة ثبوتية، بل - كما أسلفنا - يعتقدون أنَّ الله تعالى هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق، ومعنى قولهم: بشرط الإطلاق أي: لا يتقيد بصفة، فعندهم أنَّهم يثبتون الله تعالى وجوداً مطلقاً لا يتقيد بوصف، وهذا أمر مردود عليهم، لأنَّه لو لم يكن إلا صفة الوجود لكان ذلك كافياً في إبطال مذهبهم، فلو قيل لهم: أتثبتون أنَّ الله تعالى موجود أم لا؟ لم يكن لهم بُدّ أن يقولوا: هو موجود، وحينئذ إذا أثبتوا صفة الوجود لله عز وجل لزمهم أن يثبتوا ما دونها من الصفات، لأنَّها من بابة واحدة، فصاروا ينكرون علم الله عز وجل من هذا المنطلق.

واعلموا أنَّ هؤلاء النفاة مذهبهم في هذا الباب باب أسماء الله وصفاته حيال ما أثبت الله تعالى لنفسه من الصفات أنَّهم يجعلونها إما صفات سلبية، أو صفات إضافية، أو مركبة منهما، فكلُّ ما وصف الله تعالى به نفسه مما لا يستطيعون الفرار منه، إذ هو ناطق الكتاب وصحيح السنة المتواترة، يحملونها إما على وصف سلبي، أو على وصف إضافي، أو مركب من سلبي وإضافي، كيف ذلك؟ مثلاً يقولون حينما نجبههم ونقول: الله تعالى سمى نفسه عليماً، ووصف نفسه بالعلم، يقولون: نعم، ليس المقصود بالعلم إثبات صفة وجودية هي العلم، وإنَّما المراد به نفي الجهل، هذا معنى كونهم يصفون الله بالسلوب، أي: أنَّهم يجعلون ما أثبت الله تعالى لنفسه المراد منه نفي ضده، فالعلم عندهم هو نفي الجهل، والقدرة عندهم نفي العجز، وهكذا يجعلون كل وصف ثبوتي يُراد به نفي ضده، فقط، ومن المعلوم أنَّ النفي ليس كمالاً، النفي المجرد لا يدلُّ على الكمال، ولا يُتمدح به، وقد يجعلونها صفة إضافية، فمثلاً حينما يأتون إلى اسم الله "الخالق"، يقولون: المقصود بصفة الخلق وجود مخلوق له، لا أنَّه متصف بصفة الخلق، وجود مخلوق، لا أنَّه يقوم به وصف هو صفة الخلق. كلُّ هذا من التكلف والتعسف الذي لم يدر بخلد أحد من الصحابة والتابعين، وإنَّما حملهم على ذلك المقدمات الفاسدة، وتارة يتحذلقون ويقولون: أنَّها مركبة من السلوب ومن الإضافات، فيقولون: هي سلبية من وجه، وإضافية من وجه، كما قد يقولون ذلك في اسم الله "الأول"، فيقولون: المقصود بالأول يعني: أنَّه لا أنَّه متصف بصفة الأولية، ولكن أنَّه غير مسبوق بشيء، وكونه مركباً من جهة أنَّ بعده ثان، أو غير ذلك من التلاعب بالألفاظ. فالمقصود أنَّهم جنوا على النصوص القرآنية والنبوية، وحملوها على غير مراد الله تعالى ومراد نبيه صلى الله عليه وسلم، فهم اعتقدوا ثم استدلوا، والمسلك الصحيح أن يستدل الإنسان ثم يعتقد، وإلا ما كان الدليل دليلاً.

وهذه المواضع التي ساقها المؤلف آيات محكمات ذات دلالات واضحات، لا يختلف اثنان في دلالتها على سبق علم الله تعالى بالأشياء قبل وجودها، وعلى أنَّ ما من متحرك يتحرك، أو ساكن يسكن، إلا وقد سبق به علم الله تعالى الأزلي الذي هو صفة ذاتية له، فقد قدَّمنا أنَّه لا يتم إيمان امرئ بالقدر حتى يؤمن بعلم الله المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً، كلياً وجزئياً، ما يتعلق بفعله، وما يتعلق بفعل خلقه من الأرزاق والآجال والطاعات والمعاصي، مما كان، ويكون، وما سوف يكون، وما لم يكن كيف لو كان يكون، هكذا، وقد

ساق المؤلف آيات، وعقَّب عليها بما رأيتم من الوضوح في دلالتها على سبق علم الله تعالى بالأشياء، وعلمه ما الخلق عاملون إلى يوم القيامة، فهذا أعظم ركن من أركان الإيمان القدر، ولهذا كان القدرية نفاة القدر ينكرون علم الله السابق، لماذا؟ بناءً على فساد تصورهم من أنَّه يلزم من تقدير الله تعالى أن يوصف بالظلم، فمحنة هؤلاء القدرية التي حملتهم على تنكب هذه المضائق أن قالوا: كيف يقدِّر المقادير ويقضي لأحد بالسعادة ولأحد بالشقاوة ثم يعاقبهم عليها. وهذه تبدو لأول وهلة معضلة وإشكال، والواقع أنَّه عند النظر والتأمل ليست كذلك، وذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى بمقتضى ربوبيته قد قدَّر المقادير، إذ لو لم يقدِّر المقادير لما كان رباً، هو الرب سبحانه الخالق المالك المدبر، فمقتضى ربوبيته ألا يقع شيء إلا بعلمه وأمره وتدبيره وقضائه السابق، وإلا لكان موصوفاً بالعجز، وهذا ينافي الربوبية، فالله سبحانه وبحمده قد قدَّر المقادير منذ الأزل، وعلم ما العباد فاعلون، {وقبض قبضة وقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وقبض قبضة وقال: هؤلاء في النار ولا أبالي}، لكنه سبحانه وبحمده أخفى القدر عن عباده، وأقامهم في أرضه، وأظهر لهم الشرع وأخفى عنهم القدر، وقال: اعملوا، وأعطاهم من الأدوات والآلات ما يتمكنون به من الفعل والترك، فكلُّ أحد يعمل عملاً أو يدع شيئاً إنَّما يفعله بمحض اختيار وسبق إصرار، وكلُّ أحد يفرِّق بين أفعاله الإرادية الاختيارية وأفعاله الاضطرارية، وبالتالي فإنَّ العاصي إذا عصى يعصي عن إرادة، والطائع إذا أطاع يطيع عن إرادة، فكان العاصي مستحقاً للعقاب، والطائع مستحقاً للثواب، وهذه الإرادة وهذا الفعل حقيقيان، ليس جبريان قسريان كما توهموه، ذلك أنَّ الله تعالى قال: ((فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى))[الليل:٥-٦]، لاحظ أسند الله هذه الأفعال إليهم، ((أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ))، من الذي أعطى واتقى وصدق؟ العبد، قال: ((فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى))[الليل:٧]، وبالمقابل ((وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى))[الليل:٨-٩]، إذاً من بخل واستغنى وكذب هو العبد أيضاً، ((فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى))[الليل:١٠]، فبهذا تنحل معضلة هؤلاء القدرية، ويقال لهم: لا يمكن لأحد أن يحتج بقدر الله على معصية الله، لأنَّ الله تعالى قد أخفى القدر عن خلقه، ما يتم لكم الاحتجاج، ومتى تستحكم شبهتكم؟ لو أنَّ الله سبحانه وتعالى أخبر وقال: أنتم يا هؤلاء المعينين من أهل النار، ثم أمرهم بطاعته، فلم يمكنهم ذلك، لكان هذا تعجيز، أو لو قال لأهل الطاعة: أنتم أيها المعينون أنتم من أهل الجنة، ثم أمرهم ونهاهم،

حينئذ يتوجه الاحتجاج، أما وقد أخفى الله تعالى ذلك ولا يعلم العبد بقدر الله عليه إلا بعد صدور العلم منه، فإنَّه لا يتم لأحد الاحتجاج بهذا الأمر، ولهذا تجدون أنَّ هؤلاء القدرية لا يحتجون بقدر الله في أمورهم الدنيوية، تجد أحدهم في مصالحه الشخصية وطلبه للدنيا والرزق والولد والجاه وكذا، لا يقول: هذه أمور مقدَّرة فأنا أسير في قدري. لا، يتخذ من الأسباب والأفعال ما يمكِّنه من الوصول إلى المقصود مع احتمال أن لا يحصل، ومع ذلك يفعله، فكيف يرتضي ذلك لدنياه ولا يرتضي ذلك لدينه؟

فالمقصود من هذه الآيات الرد على هاتين الطائفتين، الرد على الجهمية الذين قد ضلوا في باب الصفات، والردُّ على القدرية الذين ضلوا في باب القدر، وتضمن ما ساقه المؤلف من آيات إثبات مرتبة أخرى من مراتب الإيمان بالقدر وهي مرتبة الكتابة، وذلك أنَّ ربنا سبحانه وبحمده قد كتب علمه في اللوح المحفوظ، فجميع مقادير الخلائق قد جرى بها قلم القدر فهي مسطورة مزبورة في اللوح المحفوظ، كما مرَّ بنا في بعض الآيات، ومن ذلك قول الله تعالى: ((أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ))[الحج:٧٠]، فجمع بين العلم والكتابة، وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما في صحيح مسلم مرفوعاً: {إنَّ الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، حتى العجز والكيس}، يعني: حتى الصفات النوعية للناس قد كتبها الله عز وجل.